# فلسفة "الخلوة" في رواية "أنثى السراب" لواسينى الأعرج

أ.كريمة نطور
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)
مخبر اللسانيات وتحليل الخطاب.
أ.د بلقاسم مالكية
المدرسة العليا للأساتذة ورقلة

#### الملخص:

يؤسس المكان الروائي لتفاعل مهم في الرواية الحديثة، إذ يشغل حيزا معتبرا داخل المتن الحكائي ويساهم في إثراء المستويين الشكلي والمضموني، غير أنّ أية معالجة مكانية في الرواية لا يمكن أن تحقق قيمتها إلا في علاقة المكان بالبنية السردية، لأن دلالات المكان ترتبط بمتن الرواية فتاتحم بالأشياء، والروائح والأزمنة، ومواقف الشخصيات وانفعالاتها. ناهيك عن الأبعاد التي تجسد هذا التلاحم إذا وفق الكاتب في توصيف هذا المكون وربطه بمواصفات حسية ومعنوية تضيف قيمة نوعية للرواية. حيث تجسد العزلة مثلا صفتين لزمتا المكان وأمدتاه بأبعاد روحية، أسقطت عنه صفته المادية ليضحى لصيفا بالشخصية ونفسيتها، وهذا ما يفسر ما للأمكنة من وجود غير طبيعي وقدرة على تفسير ما تخفيه عناصر السرد الأخرى.

الكلمات المفتاحية: الرواية الحديثة، المكان، البنية السردية، الخلوة.

#### **Abstract:**

The place of the novel implements the interaction and makes it important in the modern novel, as occupying space, considering within core and contribute to the enrichment of the formal and content levels. However any activities, however, can address exhaustively the possibility in the novel cannot worth only in relation to the narrative, because the indications of place-space linked to the regime to novel things and its affections, perfume and times, and attitudes, as well as personalities. Add to that the dimensions that reflect this cohesion if, according to the writer, this component profile and linking it to the sensory and moral specifications .As it adds value to the quality of the novel. Where, for example, isolation and solitude embodies the traits of that gave it dimensions of place, dropped by the spiritual and physical character sacrifice embedded in a spirit personality. Thus explains why there is not natural, as well as the ability to interpret what hides other narrative elements. **Keywords**: modern novel, the place, the narrative structure, the isolation.

#### Résume:

L'espace romancier établit une intéraction importante dans le roman contemporain, et qui occupe un éspace consédérable dans le corpus naratif et contribue à enrichir les deux niveaux: formél et substantif (le contenu). Cépendant ancun traitement dans le roman ne peut être réalisé que par rapport à la relation de l'éspace avec la structure narrative. Parceque les connotations (significations) du lieu se rapportent à la substence du roman et sont liées par les choses, les temps et les attitudes des personnalités et leurs émotions. Et ces démensions qui incarnent cette cohésion selon l'emploi de cet élement et qui doit être lié aux spécifications morales montrant la valeur et la qualité du roman, où l'ésolement et la solitude spirituelle représentent une qualité nécéssaire et dotée de dimensions spirituelles. Il a été dépouillé de son caractére physique ce qui montre sa relation avec la personnalité, cela explique pourquoi les lieux ont une présence anormale et la capacité d'interpréter ce que les autres éléments narratifs cachent.

Mots clés: roman contemporain, le lieu, la structure narrative, l'isolement spirituel.

# تقديم:

تنير هذه الدراسة بعض جوانب "الرواية الحديثة" التي أصبحت ملاذ الروائبين في حاضر فرض عليهم تجديد الأشكال السردية من خلال مراجعة القواعد المؤسسة للرواية التقليدية وللأيديولوجية التي تعتمدها في بناء عوالمها التخبيلية، شريطة أن تستجيب هذه الأخيرة لأفق انتظار القارئ الذي يرغب في غالب الأحيان في الحصول على عالم روائي ومخيالي يتطابق إلى حد ما مع واقعه الفعلي، ويجيب كذلك عما يعتريه من قلق وجودي وغموض فكري ويلبي لدية فنية عميقة.

وفي الوقت نفسه يتمكن الروائي من التمتع بحريته في كتابة النصوص التي تطرح الأسئلة وتجيب عنها في قالب أدبي يتمتع بالمرونة لفهم النص الجديد، الذي تراه مزيجًا من كل أنواع الفنون تترصع جنبًا إلى جنب لتخرج لنا نصلًا فسيفسائيًّا يحمل معه التراث والفلسفة والدين والموسيقي والأسطورة والخرافة لحد اعتبار أن هذه النصوص نسيج متكامل من مختلف الفنون.

يقول ليزلي فيدلر بأهمية أن: "تعبر الحدود ونغلق الثغرات"، وكأن ذلك يعني تحطيم الأسوار بين الفن وغيره من الأنشطة الإنسانية.. وتحطيم الحواجز بين التخصصات والعمل معاً في ألوان من الإنتاج المشترك؛ لإيجاد فنون أكثر تركيباً وغنى" فقد يصطدم القارئ في الالتباس والخلط والتراكم المعرفي والاستغراق في الأشياء والصور والحكايات والتقكير والتألمل في الوجود والحقيقة عبر أزمنة وأمكنة غير معروفة المعالم والحدود تترامى في عالم التخييل والسرد المادة الحكائية.. وذلك بتقكيك الإطار الفضائي والزمني للقصة إلى شظايا سردية معزولة عن بعضها البعض مع توظيف الشكل الدائري في المشاهد التي تتجاوز الأسلوب الذي يعاكس ويعارض الخطية الزمنية والسردية ". ومن هنا للواقع الذي يتخبط في حمأته الإنسان على اختلافاته، وتسليط الضوء على الرؤى التي يحملها في أعماقه لأشكال المستقبل الذي يصبو إليه. وبذلك تكون الكتابة الروائية أكثر خطراً من الكتابة التاريخية والفلسفية والاجتماعية؛ إذ هي المستقبل الذي يصبو اليه. وبذلك تكون الكتابة الروائية أكثر خطراً من الكتابة التاريخية والفلسفية والإبداعية "ق. ومن بين الكتاب الذين دخلوا هذه المغامرة الأدبية صاحب رواية "أنشى السراب" واسيني الأعرج الذي عرج بفكره وإبداعه نحو سماء ينحت منها طقوسه في الكتابة والإبداع متوساً بلغة "بشوبها كثير من الشطح الرومانسي الصوفي، والإغراق في لفائف ضبابية شعرية، تدفع القارئ إلى زوايا تبتعد عن السرد في أحايين كثيرة، لتهوم به في عوالم حالمة، ثم تعود به إلى نهر الحياة، وقد غمرته تلك اللغة بشابيب من الأضواء والأنوار الخيالية . وكأن الراوي لم يعد يكترث للسرد الخطى.. ".

تحت هذه المحمولات سنحاول في هذه الورقة البحثية أن نسلط الضوء على مكون مهم في البنية السردية للرواية وهو "المكان" ومن خلاله ستنطلق الدراسة موجهة مسار التحليل الذي ينير مخابئ هذا المكون الذي يقوم بعدة وظائف أهمها: تكوين إطار الحدث، وتحريك خيال القارئ لتصور الأمكنة، ومؤشر مهم في تتبع الدلالات الرمزية لتكون محطات تأملية للأمكنة عبر تحولاتها المستمرة؛ وبالتالي الكشف عن أبعادها الاجتماعية والتاريخية والنفسية....

# المكان مؤطرا وحاويا في رواية أنثى السراب:

يتجاوز الحديث عن المكان دلاليا القول أنه: الموضع الحاوي للشيء، أو الموضع و الجمع منه أمكنة <sup>5</sup>، إلى الخوض في تقابلاته الدالة على الحيز و الفضاء حيث يحظى الأخير بالشيوع في الدراسات النقدية المعاصرة، إلا أن لفظة المكان أقدر على احتواء الإطار العام للأحداث بشكل مباشر ومعين "لما فيها من تحديد وتركيز للحدث على عكس الفضاء المعبر عن الفراغ و الحيز اللذان يحملان الكثير من الشمولية و الاتساع و التشعب "6 مما يؤكد قدرة المصطلح على المطابقة التامة للدلالات الحميمة المرتبطة بالمدلولات التي تتعين عبر العلاقات الثاوية ضمن النصوص.

في رواية "أنثى السراب" صرح واسيني الأعرج منذ البداية بمكان الأحداث؛ حيث أسس لوجود الأمكنة بطريقة تصويرية وصفية عن المكان الذي ستنطلق منه الأحداث وقد ذللها بالوصف متخذًا الشكل التصويري، "لا شيء في السكريتوريوم سوى هذا الضوء الخافت الذي يضيء الجانب الأيسر من وجهي، ومساحة أحرف الكمبيوتر بشكل جيد، بينما تعوم بقية الغرفة في الظلام"3، وبهذا وضع واسيني الأعرج قارئه أمام مكان مستوف كل الشروط والمقاييس حسيًا ومعنويًا، وبالإضافة إلى تحديده للمكان، فهو يخبر القارئ عن البيت الذي تسكنه (ليلي) بطلته في الرواية؛ حيث اختار لها بيتًا لأن "البيوت والمنازل تشكل نموذجًا ملائمًا لدراسة قيم الألفة ومظاهر الحياة الداخلية التي تعيشها الشخصيات، وذلك لأن بيت الإنسان امتداد له، فإذا وصفت البيت فقد وصفت الإنسان"2.

والإنسان يعيش في البيت الذي يختار السكن فيه مع من يحب، فهو خاضع لسلطة اجتماعية، فينقاسم معهم تفاصيل الحياة؛ إذ يشكل البيت مجموعة من الصور التي تعطي الإنسانية براهين أو أوهام التوازن ونحن نعيد تخيل حقيقتها باستمرار، ولتمييز كل هذه الصور يعني أن نصف روح البيت، "البيت هو واحد من العوامل التي تدمج أفكار و ذكريات و أحلام الإنسانية، و مبدأ هذا الدمج و أساسه هما أحلام اليقظة و يمنح الماضي و الحاضر و المستقبل، البيت دينامية [...] إنه البيت يحفظه عبر عواصف السماء و أهوال الأرض"

فالبيت الذي اختاره واسيني لبطلته من طابقين، طابق خاص بالعيش مع الأسرة، والطابق الثاني أو السفلي "القبو" مخصص للبطلة "ليلي" خصص لها الكاتب هذا المكان حتى تستطيع أن تؤسس لشخصيتها وتشبع نهمًا من الكتابة؛ إذ يعتبر القبو الهوية المظلمة للبيت، هو الذي يشارك قوى العالم السفلي حياتها، كما يمثل المكان المنتج للبطلة "وهو الذي يشبه النباتات التي تأخذ ضلالها من المواد الأولية في الطبيعة ثم تنتجها على شكل ثمار و أزهار و كذلك المكان المنتج، و هذا النوع من الأمكنة من أرقى أنواع الأمكنة و جمالياتها من أفضل جماليات الأمكنة"8. حين نحلم بالقبو، فنحن على انسجام مع لا عقلانية الأعماق، إننا نفهم بوضوح أكبر ازدواجية هذا الاستقطاب العمودي إذا وعينا بشكل كاف أن وظيفة السكن هي استجابة خيالية لوظيفة بناء البيت.

الإنسان في بنائه للجزء الأعلى من البيت وحجرة السطح وترتيبها بشكل متقن، أي إنه يركز على الجانب الواعي من حياته النفسية؛ إذ يكون أكثر حذرًا واتزانًا في تصرفاته مع محيطه، وأما بالنسبة للقبو فيكون أكثر حرية والا وجود لسلطة فوقية تتحكم في تصرفاته وسلوكه وذلك الأنه قابع في مساحة اللاوعي<sup>1</sup>.

من خلال ما تقدم، يظهر لنا أن علم نفس البيت هو إسقاط لعلم نفس الإنسان، فالتركيب العمودي للبيت المتشكل من العلية والقبو إذ تقابل العلية الجانب النفسي الظاهر للإنسان (الوعي) المساحة التي يكون فيها في حالة من الاتران الوهمي كونه خاضعًا لمجموعة من الضوابط الإيديولوجية والاجتماعية..(الأنا الأعلى).

ونستطيع أن نتمثل هذا الجانب في المشهد الذي صوره الكاتب واسيني الأعرج من رواية أنثى السراب (قيد الدراسة) فتقول ليلى: "في الطابق الأول كلهم نيام، صغيرتي ملينا نامت مبكرًا. قالت لي قبل أن نتام: ماما حبيبتي، هل ستنزلين إلى الكهف؟ طمأنتها أني سأظل بجانبها، وأني سأظل بين فوق وتحت. لديَّ رغبة للكتابة لا أستطيع مقاومتها. قالت: لا يا ماما حبيبتي. خليك بالكهف. أعرف أنك هناك ترتاحين كثيرًا. معي خويا يونس... الذي نام مبكرًا هو أيضًا، على غير عادته. سألني قبل أن يغمض عينيه: يما عندك حبة دوليبران؟ رأسي يكاد ينفجر. جئته بكأس ماء. شرب الحبة، ثم نام "9.

تتصرف بطلة الرواية (ليلى) باتزان ووعي تجاه أسرتها (في الطابق العلوي) وتقوم بواجبها تجاه أبنائها ورعايتهم، لكن في الوقت نفسه تبحث عن ذاتها لأنها امرأة شغوفة بالكتابة، فهي تتطلع إلى المكان الذي يطابق نفسيتها المحمومة بالفن والإبداع فلم تجد غير السكريتوريوم (القبو)، وهو الجانب المظلم من البيت والذي يعكس الحياة النفسية الخفية (اللاواعية) للبطلة وهو الجانب المتحرر من كل الضوابط والقيم، كذلك هو الفسحة التي تمكن البطلة من تحرير

كل مكبوتاتها عن طريق الكتابة. تقول ليلى: "هذا القبو، أو الكهف كما يسميه ابناي وزوجي وأسميته أنا منذ زمن بعيد السكريتوريوم، يعطي الانطباع، بأثاثه المتنوع والغريب، بقبر فرعوني تُرك تحت الأرض زمنًا طويلًا. وتقول أيضًا وحيدة وسط الفراغ الجميل الذي يمنحني السكينة للتفكير الجيد: طبعًا لست في هذا السكريتوريوم الذي اخترته في قبو البيت، بمحض الصدفة. أصفي حسابي مع شيء غامض لا أعرف كيف أسميه! مرضي المزمن؟ حبيب العمر؟ دنياي؟ قاتلي؟ كاتبي الذي أقصاني من حقي في الحياة، ووضع في مكاني قناعًا سماه مريم ليضفي بعض القداسة على الجريمة؟! السكريتوريوم هو سري المتبقي. منه ستنبعث حقيقتي الأعمق التي تخرج مني لأول مرة. لا شيء فيه مدهش سوى ظلاله وصمته" 2. قد لا يكون المكان الذي أنا فيه رومانسيًّا ومناسبًا، ولكنه جميل لأنه مثقل بالأسرار، وغامض لأنه يشبهني أيضًا. أؤمن أن أمكنتا وحقائب سفرنا تشبهنا" 1.

نقدر مما سبق ذكره أن للمكان قدرة على التأثير في تصوير الأشخاص، وحبك الحوادث، مثلما للشخصيات أشر في صياغة المبنى الحكائي للرواية. فالتفاعل بين الأمكنة، والشخوص، شيء دائم ومستمر في الرواية، مثلما هـو دائـم ومستمر في الحياة، فتكوين المكان، وما يعتريه من تغير في بعض الأحيان، يؤثر تأثيرًا كبيرًا في تكوين الشخوص، وقد يكون وصف الأمكنة من الدوافع التي تجعلنا نفهم الأسرار العميقة للشخصية الروائية.

من خلال ما تقدم، يظهر لنا أن علم نفس البيت هو إسقاط لعلم نفس الإنسان، فالتركيب العمودي للبيت المتشكل من العلية والقبو إذ تقابل العلية الجانب النفسي الظاهر للإنسان (الوعي) المساحة التي يكون فيها في حالة من الاتران الوهمي كونه خاضعًا لمجموعة من الضوابط الإيديولوجية والاجتماعية.. (الأنا الأعلى).

مما سبق ذكره، سنحاول من خلال هذه الدراسة التي بين أيدينا أن نبين مدى استجابة هذه المدونة لمقتضيات الحال، علمًا بأننا وقفنا عند أهم بنية في الخطاب الروائي وعلاقته بالشخصية الروائية وهو المكان ومواصفاته. بعد ما قدمنا الجزء النفسي الخاص بالمكان وعلاقته بالشخصية، علينا الآن أن نركز على الجانب الوصفي للمكان وأبعاده، وسنركز على مسألة الخلوة وارتباطها بالمكان الذي اختاره الكاتب لشخصيته وكيف نقاسمت مع القارئ آمال وآلام الذكريات؛ حيث صورها الكاتب سجينة الماضي تبحث عن مكان تسترجع في جنباته كل الصور التي جالت وصالت بها، وهذه التقنية التي لجأ إليها الكاتب هي تقنية "التداعي الحر" حيث تتحول كثير من صفحات الرواية إلى سقوط في آتون الذاكرة، تتراجع بها الشخصية إلى أغوار النفس المظلمة لتستخرج منها أحداثًا وأحداثًا، ما كان لها أن تظهر لولا ذلك التراجع المثير في أغوار الذات...10.

وقد تبين من خلال الرواية، أن فكرة الخلوة والانعزال حاضرة بقوة في الرواية؛ لذلك ارتأينا أن نبسط المفهـوم العام لهذا المصطلح.

# مفهوم الخلوة:

"الخلوة أخص من العزلة، وهي بوجهها وصورتها نوع من الاعتكاف،... وهي انقطاع عن البشر لفترة محدودة، وترك للأعمال الدنيوية لمدة يسيرة، كي يتفرغ القلب من هموم الحياة التي لا تنتهي، ويستريح الفكر من المشاغل اليومية التي لا تنقطع...<sup>11</sup>. الخلوة عبارة عن ترك الدنيا بما فيها والاختلاء بعيدًا عن الناس وترديد "ورد أو عزيمة أو اسم أو توجه أو آية" بلغة مفهومة أو غير مفهومة مع صيام وإفطار على ما يخلو من روح والنوم عن غلبة وذل وخضوع وخشوع تام حتى إتمام الأمر المراد، وهي تبدأ من يوم واحد ولا تنتهي عند عدد، فمن الناس من يختلي عشرًا، ومنهم من يختلي أربعين، ومنهم من يفعلها تسعة أشهر كما كان يحدث قديمًا بمغارة دانيال بالمغرب العربي".

وبإسقاط هذا المفهوم على الرواية نجده قد استوفى معظم الشروط وكأن الكاتب أعطى بعدًا صوفيًّا لهذه الرواية مبرزًا فيها الخلوة بأنواعها وشروطها، فالشخصية (ليلى) التي أرادها واسيني أن تتعزل في مكان بعيد عن العالم الخارجي حيث تركت كل هموم الدنيا وانشغلت لتتفرغ للكتابة والانغماس في سلطانها، فهي عازمة على أن تشبع

رغبتها التواقة للفن والإبداع، مصرة على جمع شتات ذاكرتها المثقلة بصور الطفولة والمغامرات العشقية، وارتباطات العائلية التي تنغص عليها حياتها لأنها لم تكن راضية كل الرضا بالزواج من رياض ابن عمها، في الوقت الذي رفض رفيق دربها وحبيبها سينو مشاركتها الحياة الزوجية، فأطلقت العنان لاسترجاع ذكرياتها المشحونة بالحب والعطاء، في المقابل تصطدم بواقع مريم التي نغصت عليها حياتها بشكل كامل. فتسرد قائلة: "يجب أن نسكت أمام الأقدار القاسية لكي لا نستفزها أكثر... إني أقرأ في عينيك كل حيرتك وحيرتي من زمن صنعه غيرنا، وخذلنا في النهاية. كنا نطم ببلاد نمشي فيها على الورد ونستقبل كل صباح نور شمس بجيش من الأولاد المفتوحين على المستقبل، ففتحنا أعيننا على عصابة الورثة الذين باعوا كل شيء لجحيم المال، حتى تاريخهم وتاريخ الذين ماتوا بين أيديهم مضرجين في مائهم. لا أريد أن أعرف من أين جاءوا وأي زمن مجنون صنعهم؟"13.

كما تحيلنا فكرة الخلوة – والكهف في سياق آخر - في الرواية لنظرية أفلاطون "وفيها مجاز واقعي لحياتا، وكيف يؤثر الواقع على رؤيتا للأمور ووصولنا إلى الحقيقة. فرغم بساطتها إلا أنها فلسفة من الممكن أن تقودنا لاستخراج الكثير لتخبرنا كيف بوسعنا أن ننظر للعالم من زوايا تختلف عن تلك التي اعتدنا النظر منها. فحين ندرك أن الأفكار هي نتاج واقع أو محيط أو قيود ساهمت بتشكيل قناعاتنا، سيساعدنا ذلك بلا شك لتقبل الاختلاف، خاصة في الأفكار. يبني أفلاطون فكرته الجوهرية في هذه النظرية على أن ما نراه أو ما اعتدنا أن نراه قد لا يكون الواقع أو الحقيقة، ولذا فالحواس بالنسبة له تخدع و لا يمكن الاعتماد عليها" 14.

رمزية الخلوة وأنواعها: توزعت وتنوعت في الرواية حسب الدلالة المراد منها وهي:

1- الخلوة في (السكريتوريوم): يحظى المكان بوصف دقيق: اسم المكان "السكريتوريوم" تصحبه إحالة أسفل الصفحة في الرواية يقدم فيها واسيني ترجمة وتعريفًا للكلمة الأجنيبة (السكريتوريوم): "كلمة من أصل لاتيني الصفحة في الرواية يقدم فيها واسيني ترجمة وتعريفًا للكلمة الأجنيبة (السكريتوريوم): "كلمة من المحان الذي كان ينجز فيه القساوسة والكهان مخطوطاتهم، قبل اختراع المطبعة. تعتبر الإحالة اعترافًا ضمنيًا عن عجز واسيني عن إيجاد مرادف في اللغة العربية لكلمة scriptorium اللاتينية الأصل لما تحمله من حمو لات فلسفية وثقافية ودينية سنعرضها لاحقًا، وبأن أي محاولة للترجمة ستفقدها حمولتها الثقافية، وبانز لاق المعنى، أصبحت الكلمة تعني، اليوم، المكان المختار للعزلة من أجل الكتابة "<sup>17</sup>. وقد أكد واسيني على مواصفات المكان المنعزل لشخصية الكاتبة في المقطع: "لديًّ رغبة للكتابة لا أستطيع مقاومتها... ما يزال الكمان الذي عزفت به طول الليل مقطوعات سوزان لوندينغ، <sup>18</sup> في مكانه حيث وضعته عندما انكفأت على الكتابة <sup>19</sup>.

2 (مريم العذراء): لم يدرج كاتب الرواية اسم مريم هكذا فقط، بل أعطاها بعدًا رمزيًّا من خلاله نستطيع تحديد قوة هذا الاسم داخل شبكة العلاقات في بناء المعنى المراد، فدرجة التشابه بين رمزية الخلوة للشخصية الروائية تتحد مع انعزال مريم العذراء حين اتخذت مكانًا تنتبذ فيه بعيدًا عن الناس في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر ْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتُ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16)﴾ 20

وفي الرواية ما يؤكد هذه المجاورة في الدلالة على أن (ليلي) تحتاج بقوة للخلوة والانفصال عن عالمها لتتفرغ لأمور تشغلها وتتشغل بها حين قالت: "أحتاج إلى قوة العزلة والانفصال عن كل شيء، لأتمكن من إيجاد توازن مقبول، لم أعد قادرة على تحقيقه"<sup>21</sup>.

3 (أهل الكهف): تتتابع الدلالات المجسدة لفكرة الخلوة في مقطع آخر في الرواية، ولكن هذه المرة برمزية الكهف؛ حيث تقول ليلى: "تمت طويلًا بين دفتي كتاب، كأهل الكهف، وها أنا ذي أقوم اليوم من الكهف نفسه، ومن غبار السنين المنهكة، ولا يهم إذا لم يفهمني الناس ولم أفهمهم"<sup>22</sup>.

وهذا دليل على أن (ليلى)لم تتقبل المجتمع والعادات والتقاليد البالية التي انزوت بها في زاوية تريد أن تتدبر في أمرها وتتأمل في إيجاد حل يشجعها على الاستمرار في الحياة؛ حيث أصبحت تنظر للدنيا بمنظار الكآبة والحزن الشديدين ولم يبق لها إلا ذكرياتها في السكريتوريوم الحافظ لأسرارها، وفكرة التخلص من حياتها الماضية هو القضاء نهائيًا على حياتها بالانتفاء والموت. إذ تقول: "لم أنم، لم أتساءل ما هي القوة الجبارة التي قادتني نحو الطابق السفلي من بيتي، السكريتوريوم، مخبأ أسراري"<sup>23</sup>.

أوغل الكاتب في وصف مكان العزلة؛ حيث أخذ حصة الأسد من الوصف والعرض في الرواية لأنها الصورة التي سنلتصق بمخيلة القارئ والتي تحمل عدة أبعاد ودلالات مركزًا على جوانب لم يغفل عنها ولم يترك حتى الظلال التي تعتري الأشياء من حوله فتتطلع منه الشخصية إلى أفق يشدها نحو الخلاص من أزمتها؛ إذ اختارت العزلة واختلت لتفكر وتخطط وتتخذ قرارات وتعبر نحو التنفيذ.. قائلة: "لأنه المكان الوحيد الذي يوفر لي حالة انفصال عن المدارات. 24 وهي على يقين بأن السكريتوريوم أو الكهوف تغير وجه العالم حيث تقول:

"في عمق الكهوف نشأت كل الممنوعات التي غيرت وجه العالم، القرآن في غراء حراء، مقدمة ابن خلدون في مغارة افرندا، مغارة سرفانتس، في الجزائر العاصمة، التي خرج منها أجمل نص وأخطره ضد محاكم التفتيش المقدس... سيدنا موسى نفسه قضى زمنًا ينظر في مغارة، ألواحه المنقذة وكلام الله. ويبدو أن رحلة سيدنا المسيح عندما سيبعث، ستبدأ أيضًا من مغارة" 25.

وكل من الأفكار السابقة تحمل دلالة التحول والبدايات، مثل الدودة في الشرنقة تمكث طويلًا وتحافظ على سكونها لتتحول بعد ذلك لكائن جميل في غاية الكمال والألق لتستطيع بعدها العيش في توازن لا يشوبه العيب والفطور.

إن تقديم عنصر المكان بمواصفاته في بداية الروايةلم يكن عشوائيًّا، بل كان مقصودًا لتوجيه القارئ إلى الفلسفة التي أرادها واسيني من خلاله؛ حيث أردفه بمرادفات لإشباع الحمولة الدلالية للكلمة وما تحمله من إشارات تفتح بها مغاليق النص المراد دراسته مثل: (السكريتوريوم، الغرفة المدفونة تحت الأرض، القبر الفرعوني، تحت الأرض، المغارة، القبو) فالمشهد الذي قدمه الكاتب بتقنية الوصف " لا شيء في السكريتوريوم سوى هذا الضوء الخافت الذي يضيء الجانب الأيسر من وجهي، ومساحة أحرف الكمبيوتر بشكل جيد، بينما تعوم بقية الغرفة في الظلم". جاءت لتؤكد على أن هذا المكان منعزل عن البيت و هو المكان المفضل للشخصية. "ما زلت في هذه الزاوية التي اخترتها لنفسى... وحيدة وسط الفراغ الجميل الذي يمنحني السكينة للتفكير الجيد "66.

بالإضافة إلى تعزيز المكان بصفتي الخلوة والاعتزال، بل أكثر من ذلك، فقد أمده بأشكال شتى من الوصف كلها دلالات تحمل معنى السفلية والتأمل والتفكير والانغماس في الذات بعيدًا عن الحياة ومتطلباتها الروتينية.

اختارت الشخصية الروائية (ليلى) المكان برغبة وانتقاء؛ حيث ركنت في مكان تحت الأرض خصه الكاتب بالوصف بدقة متناهية: "السكريتوريوم هو سري المتبقي. منه ستنبعث حقيقتي الأعمق التي تخرج لأول مرة. لا شيء فيه مدهش سوى ظلاله وصمته، مجرد مكان صغير، مليء بالأغراض الكثيرة التي ليست إلا سحابات هاربة لما كانت عليه: رسائلي طبعًا، المكتب القديم الذي تخلص منه رياض ليشتري آخر أكثر حداثة وبدزاين أحلى يمكن أن يستقبل به الآخرين من أعضاء الكارتيل، طاولة الأكل التي بدلها زوجي بواحدة أكثر طولًا وأكثر تجاوبًا مع الديكور الجديد للبيت، ارتبطت بها بشكل مرضى فقط لأن لى بها ذكرى واحدة جميلة...

ثم يستأنف في صفحات لاحقة ليؤكد للقارئ عمق ودرجة تعلق (ليلى) بالمكان الذي لا يثير أحدًا لأنه عبارة عن قبو تتكدس فيه الأغراض القديمة التي لم تعد صالحة للاستخدام حيث تقول:" يتصور الجميع في بيتي أن الطابق السفلي، الشبيه بالقبو، لا يصلح إلا لرمي الزوائد، ما عدا حبيبتي ملينا، فهي تعرف أنه مكاني الأليف. كلما رأتنسي حزينة، قالت لي: انزلي ماما إلى الكهف وارتاحي قليلًا... اكتبي أو استمعي إلى الموسيقي. أنت في حاجه إلى أن

تكوني وحيدة. يظنون أن هذا المكان ليس أكثر من الذاكرة المهملة للبيت، وينسون أنه أيضًا ذاكرتي. كلما نزلت نحو أعماقه، ارتجف جسدي بقوة. أول لمسة سينو، بعد زواجي، كانت في هذا المكان<sup>27</sup>.

ولتعزيز أهمية المكان بالنسبة للشخصية (ليلي) يؤكد في مقطع آخر إذ ركز الكاتب على إحياء الأشياء القديمـة وبعث الحياة فيها، فليلى مستطع أن تتخلى مثلًا عن كمبيوتر قديم إذ تقول: "الكومبيوتر القديم الذي يصاحبني ويخترق صمت الموت بملامس أحرفه القديمة. لقد تخطته التكنولوجيا الحديثة، ولكن قلبي وحواسي وأصابعي ما تزال ملتصقة به..ذاكرته محدودة، ولكنه يقوم بالوظائف التي أحتاج لها... اشترى لي رياض كمبيوترا يدويًّا، آخر موديل، بذاكرة ضخمة، لكنى لا أشعر تجاهه بأية قرابة"<sup>28</sup>.

لقد امتلأ السكريتوريوم الذي يسميه أو لادي الكهف، حتى أصبح رياض نفسه يستعمل هذه الكلمة وهو لا يدري، عن غباء أو عن سوء معرفة، أنه كان يرميني في عمق الغموض الذي كان ينتهي بي دائمًا في أحضان سينو. قبعت (ليلي) في مكانها طول الليل تكتب كتابًا تجمع فيه شتات ذكرياتها الجميلة مع حبيبها سينو.

يتسرب الصباح بهدوء وسكينة نحو عمق السكريتوريوم، وتتكشف أكثر أرضيته المغطاة بسجاد تلمساني قديم... المكتب بكل تفاصيله.. السرير الحديدي القديم الذي يشبه أسرة عسكرية يمكن طيها وجمعها بسرعة، كان مختبأ في الزاوية المظلمة.. صندوق المال الثقيل الذي كان يضع فيه رياض ماله ومسدسه قبل أن يستبدل به آخر أصلب وأحدث وأنعم بحيث لا يرى أبدًا وهو يتخفى وراء لوحة فنية الزرابي التي غيرت كلها وعوضت بالسجاد الفارسي الغالي. صالون من طراز لويس الرابع عشر، يعطي الانطباع كأننا لسنا في قبو واسع، ولكن في محل بيع التحف الثمينة. ثم الأشياء الصغيرة، كالكؤوس الجميلة التي صنفتها في خزانة قديمة ووضعتها في الطرف الأيسر. المكتبة الدائرية التي تحتل الزاوية اليمنى من السكريتوريوم. التحف الصغيرة التي كلما رأيت إحداها، تذكرت ليس فقط تفاصيل المدن التي بتنا في فنادقها وشعرنا للحظة أن العالم كله ملك لنا وحدنا فقط، ولكن أيضًا كل تفاصيل جنون السرير وهزات الروح... الكمان انتفى في الزاوية الخلفية من المكتب، وطمرته ظلل الأشياء المحيطة نهائيً 92.

ونستطيع تصنيف الخلوة إلى نوعين: خلوة عامة وخلوة خاصة، وسنركز على النوع الثاني الذي يخدم الدراسة، ويقصد بالخلوة الخاصة الوصول إلى مراتب الإحسان والتحقق بمدارج المعرفة 30.

ارتباط الكتابة بالخلوة: "إن لذة الكتابة مثل لذة الجنس بالضبط وربما كانت أكثر خلوة منها"<sup>31</sup> ."كانت الحقيقة الوحيدة، وكان قناعي هو الورق"<sup>32</sup>.

لقالت: لا يا ماما حبيبتي. خليك بالكهف. أعرف أنك هناك ترتاحين كثيرًا"33.

ختاما نقول، إن عناية السارد باللمكان في الرواية وربطه بالعناصر الفنية الأخرى من حيث علاقة تأثيرية واضحة انتقلت عبر تفاصيل مهمة و تشبيهات أضفت انفتاحًا دلاليًّا على الثقافة الصوفية التي عنيت بمبدأ الخلوة والانعزال صفة للراغب المتقرّب من الذات الإلهية؛ وعليه فإن اختيار الكاتب للمكان كان مدروسًا يفتح أمام القارئ سبلًا متنوعة للفهم والتأويل كل حسب مرجعياته.

### الهوامش:

```
1 مصطفى عطية جمعة، ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة، الذات- الوطن- الهوية، الوراق، ط2011، ص21
```

4 المرجع السابق ص56.

<sup>5</sup> ينظر الزبيدي، تاج العروس وهكذا اتفق الفيروزبادي في القاموس المحيط وأضاف ابن منظور معنى الغنى و الخــواء دالا علــى طبيعتـــه وموقعه.

6-سيز ا قاسم بناء الرواية در اسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، مكتبة الأسرة، القاهرة، د.ت،ص:106.

3 الرواية ص11 .

<sup>2</sup> رينيه ويليك، واستن وارين، نظرية الأدب، نر :محي الدين صبحي، سوريا، 1972،ص288

7-غاستون باشلار ،جماليات المكان، ترجمة:غالب هلسا، دار المؤسسة الجامعية، بيروت-لبنان، ط2، 2014، ص:85.

8-جيهان أبو العمري جماليات المكان في شعر تميم البرغوثي، دار الأيام، قطر، ط1، 2014، ص: .84

<sup>1</sup> ينظر: نفسه، ص54و 46.

<sup>2</sup> الرواية ص 51و 52و 56.

أبِر اهيم خليل: بنية النص الروائي-دراسة-منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، ط1،2010، ص131.

10 المرجع نفسه ص60.

11 عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، حلب في 24رمضان 1381ه الموافق 17شباط 1961م، ص123و 124

<sup>12</sup> حامد حماد، مدونة روحانيات مصرية سؤال وجواب، شروط الخلوة الروحانية وحقيقتها، الأربعاء 30 أكتوبر 2013 ، 12جانفي 2018.

13 الرواية ص405.

http://www.saqya.com/14 نظرية الكهف عند أفلاطون.

<sup>15</sup> ص 11.

16

<sup>17</sup> الرواية ص 11.

18 عازفة كمان موسيقية نورويجية

<sup>19</sup> الرواية ص14و 15

<sup>20</sup> - سورة مريم، الآية 16.

<sup>21</sup>الرواية ص526.

<sup>22</sup>الرواية ص460.

<sup>23</sup>الرواية ص452.

<sup>24</sup>الرواية ص37.

<sup>25</sup>الرواية ص56.

<sup>26</sup>الرواية ص52.

<sup>27</sup>الرواية ص 419.

<sup>28</sup>الر و اية ص 57و 58.

<sup>29</sup>الرواية ص56و 505و 506

 $^{30}\ https://sites.google.com/site/abdelfatahdrwesh/Sufi-true/ktab-hqayq-n-altswf/alkhlwte-nd-alswfyte$ 

<sup>31</sup>الرواية ص17.

<sup>32</sup>الرواية ص 21.

<sup>33</sup>الرواية ص 51.

<sup>&</sup>lt;sup>2</sup> محمد داود، الرواية الجديدة بنياتها مقاربة سوسيو نقدية، ط1،2013، ص. 234

<sup>3</sup> منى بلشم، المحكي الروائي العربي أسئلة الذات والمجتمع، كتاب جماهي تق: سعيد بوطاجين، دار الألمعية للنشر والتوزيع، ط،1،2014، ص55